فن الالتفات في مباحث البلاغيين

جليل رشيد فالح

كلية الآداب / جامعة الموصل

يهدف هذا البحث إلى دراسة «فن الالتفات» بغية الوقوف على حقيقته في اللغة والاصطلاح. حيث نقف من خلال ذلك على تنبه البلاغيين الاوائل اليه وتحديد مدلوله وتبيّن وجوه تطوره في مباحثهم. ثم الوقوف على وجوهه. وبيان بواعثه. جاعلين من هذه المحاور الثلاثة منطلقاً الى دراسات اخرى مستفيضة عن هذا الفن القيم لتبين موقعه وتلمس اثره في الميدان التطبيقي والاعمال الابداعية. ومحاولة اكتشاف وجوه وبواعث جديدة لم يفطن اليها البلاغيون في مباحثهم.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وحين يكون البحث بصيغته هذه منطلقاً إلى تلك الدراسات فانه لابد ان يلمّ المعني بالدراسات الفنية والاسلوبية بأوائل نشأة الظاهرة الفنية وجذورها وحدودها وملامحها في مصادرها الاولى. ليكون من بعد على بصيرة من أمر تطور تلك الظاهرة ومدى قدرتها على استيعاب متطلبات الاساليب التعبيرية والفنون الابداعية بصيغة التواصل الحي بين القديم من الدراسات وبين الجديد من المعطيات والمباحث.

ان ظاهرة الالتفات من الظواهر التي تتحكّم في الاساليب بصيغة الحضور الفاعل والمؤثر. وكأن الالتفات — وهو يواصل اداء دوره الفني — يحقق

الاستجابة الطبيعية لنزوع الانسان إلى التنوع والتجديد في اساليب تعبيره وصيغ كلامه.

ولا عجب ان يكون تنبه البلاغيين للالتفات — وهم يرصدون الملامح الخصوصية في التعبير — قديماً، وتشخصهم له مأثوراً قبل ان يعرفوه مصطلحاً كما سنجد ذلك عند اوائل المفسرين كأبي عبيدة والفراء.

ولقد تنازع البلاغيون على الالتفات فشغل الكلاميون منهم بأمر اعتداده من المعاني تارة ومن البديع تارة اخرى. اضافة الى اشارة الزمخشري إلى اعتداده من فنون البيان.

ولعل هذا التنازع — على الرغم من انتفاء جدواه — من علائم ثراء هذا الفن وحفوله بالدلالات المعنوية والفنية والجمالية على اوسع مدى.

وقد اوضح ابن يعقوب المغربي (ت١١١٠هـ) هذا التنازع بقوله: «ويسمى هذا النقل بجميع اقسامه عند علماء المعاني التفاتاً، اخذاً من التفات الانسان يميناً وشمالاً وبالعكس. فان قلت: لأي وجه خصص تسميته لعلماء المعاني، مع ان عد الالتفات من البديع اقرب. لأن حاصل مافيه على مايأتي انه يفيد الكلام ظرافة وحسن نظرية فيصغى اليه لظرافته وابتداعه. ولايكون الكلام به مطابقاً لمقتضى الحال فلا يكون من علم المعاني فضلاً عن كونه يختص بهم فيسمونه به دون اهل البديع، قلت: اما كونه من الاحوال التي تذكر في علم المعاني فصحيح. كما اذا اقتضى المقام فائدته من طلب مزيد الاصغاء لكون الكلام سؤالاً او مدحاً او اقامة حجة او غير ذلك. فهو من هذا الوجه من علم المعاني. ومن جهة كونه شيئاً ظريفاً مستبدعاً يكون من علم البديع. وكثيراً مايوجد في المعاني مثل هذا فليفهم. وانما تخصيص علماء المعاني بالتسمية فلا حجر فيه والله اعلم»(١) ولم يكن من منهج بحثنا في دراسة هذا الفن ان نشغل بهذا التنازع عن النظر اليه فناً من

(١) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ١/٤٦٣ – ٤٦٤.

فنون البلاغة قائماً بذاته مؤديا وظيفته الفنية على النحو الذي سنوضح ابعاده ، ذلك ان النظرة المعاصرة لمهمات الدرس البلاغي تلغي هذا التقسيمَ الذي خرجت به على هذا الميدان المدرسة الكلامية ممثلة بالسكاكي ومن حذا حذوه.

وخير مانورده هنا بهذا الصدد ماعلق به الدكتور احمد مطلوب على كلام ابن يعقوب المغربي حين قال:

«ولولا تقسيم السكاكي البلاغة على اقسامها وحصر كل قسم بتعريف منطقي جامع مانع لما احتاج ابن يعقوب المغربي وغيره إلى هذا التمحل والاغراق في التأويل. والا فهل يمكن استعمال اسلوب الالتفات من غير أن يؤديّ معنى فيكون مطابقاً لمقتضى الحال وتكون فيه طرافة وطلاوة؟

ان الانتقال من اسلوب إلى آخر لايكون الا اذا اقتضى الحال وأريد به نوع من الابداع والمتعة الفنية . ولذلك ينطبق عليه تعريف علم المعاني وعلم البديع . ولانرى مبرراً للتفريق في عده من المعاني مرة ومن البديع تارة اخرى على الوجه الذي يذهب اليه البلاغيون»(١) .

ومن ثم فان «الالتفات» من الفنون ذات الاثر الفعال في تنويع انماط الكلام تلبية لبواعث نفسية شتى. ومقتضيات احوال مختلفة في التحدث عن اجزاء الموضوع الواحد باساليب مختلفة في مغايرة لظواهر الاحوال الاعتيادية.

ومن اجل ان يعرف بوجوه التنويع وبواعثه الخفية وضوابطه الفنية كان هذا البحث منعقدا لدراسة الالتفات عند البلاغيين . واني لآمل ان يكون خير تمهيد لمباحث اخرى في الوضوع نفسه احقق بها امرين مهمين وضعتهما نصب عيني :

اولهما: ان يكون لهذا الاسلوب مقامه البارز في الاعمال الابداعية كالخاطرة والمقالة والقصة والرواية والمناظرة

---

(١) اساليب بلاغية : ١٣٧ .

وثانيهما: محاولة صياغة الدرس البلاغي الجديد الذي يفيد من اصالة القديم ويضيف اليه ابداع الجديد

الالتفات في اللغة والاصطلاح :

١ ــ في اللغة : جاء في اللسان : « لفت وجهه عن القوم صرفه ، .. وتلفت الى الشيء والتفت اليه صرف وجهه اليه » (١) .

وأشار البلاغيون الى المعنى اللغوي في دراساتهم للالتفات :

قال العلوي ــ صاحب الطراز ــ : « وسمي بذلك أخذاً له من التفات الانسان يميناً وشمالاً ، فتارة يقبل بوجهه وتارة كذا وتارة كذا » (٢) .

٢ ــ في الاصطلاح :

أجمع البلاغيون في دراساتهم لظاهرة الالتفات على أن معناه الاصطلاحي ينحصر في الانتقال من اسلوب الى آخر أو الانصراف عنه الى آخر . الا انهم اختلفوا في تحديد مجالات هذا الانتقال أو الانصراف . فبعض حدده بين المتكلم والمخاطب والغائب ، وعدد جمهور منهم اسماً لكل نقلة من حالة الى اخرى ، واشترطوا لهذا الانتقال توفر البواعث والدواعي على ما سنوضحه بعد .

والاصمعي (٢١٦ هـ) أول من أشار الى الالتفات ظاهرة وتسمية دون أن يورد له تعريفاً ، ذلك أن مرحلته لم تكن مرحلة التقنين البلاغي .

قال أبو هلال العسكري (٣٩٥ هـ) : « اخبرنا أبو احمد . قال : اخبرني محمد يحيى الصولي . قال : قال الاصمعي : اتعرف التفاتات جرير . قلت : لا . فما هي ؟ قال :

---

(١) لسان العرب ــ مادة لفت ٣٨٩ .

(٢) الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ١٣١/٢.
وينظر : المثل السائر ١٧٠/٢ ــ ومواهب الفتاح ٤٦٣/١.

أتنسى إذ تودعنا سليمى
بعود بشامة، سُقِيَ البشام

الا تراه مقبلاً على شعره ثم التفت الى البشام فدعا له وقوله :

طرب الحمام بذي الاراك فشاقني
لا زلتَ في علل وأيك ناضر

فالتفت الى الحمام فدعا له » (١) .

ومما يلفت أنظارنا في خبر الاصمعي أن محمد بن يحيى الصولي لم يكن يعرف معنى الالتفات حتى نبهه اليه الأصمعي ، مع أنّ الظاهرة كانت معروفة عند آخرين قبل الأصمعي أو ممن عاصرهم الأصمعي . فأبو عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠ هـ على خلاف) قد أشار في مجاز القرآن الى الظاهرة من غير تسمية لها. قال :« ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته الى مخاطبة الغائب . قال الله : (حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم) . ومن مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد . قال : (ثم ذهب الى اهله يتمطى . اولى لك فأولى) (٢) .

وكذلك المبرد (٢٨٥ هـ) تحدث عن الظاهرة كما تحدث عنها أبو عبيدة وذكر شواهده القرآنية. وساق معها ثلاثة أبيات . الا انه استعمل الفعل (صرفت) في معرض حديثه عن قوله تعالى (حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة) قال :

«كانت المخاطبة للأمة ثم صرفت الى النبي صلى الله عليه وسلم اخباراً عنهم » (٣) .

---

(١) الصناعتين – ٣٩٢ .
(٢) مجاز القرآن – ١١/١ .
(٣) الكامل في اللغة والادب ٢٢/٣ – ٢٣ .

ولعل هذا مما اوحى الى بعض البلاغيين أن يسموا الظاهرة بالصرف أو الانصراف كما ورد عند ابن وهب الكاتب واسامة بن منقذ .

قال ابن وهب الكاتب (كان حياً في ٣٣٥ هـ) :

« واما الصرف فانهم يصرفون القول من المخاطب الى الغائب ومن الواحد الى الجماعة كقوله : (حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة » »(١).

وقال اسامة بن منقذ (٥٨٤هـ) :

«باب الانصراف : وهو أن يرجع من الخبر إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الخبر» (٢) .

اما ابن المعتز (٢٩٦هـ) فهو اول من عرف الالتفات تعريفاً اصطلاحياً حين قال :

«وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الاخبار وعن الاخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك. ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر» (٣) .

ومما يلفت النظر في تعريف ابن المعتز امور جديرة بالتأمل وهي :

١ــ انه اول تعريف اصطلاحي ورد الينا بعد اشارة الاصمعي الآنف ذكرها.

٢ ــ انه حدد المحاور الأساسية لاسلوب الالتفات وهي المخاطب والمتكلم والغائب .

٣ ــ لم يقيد الظاهرة بتلك المحاور بل تجاوزها إلى التصرف في هذا الانتقال.

٤ ــ مهد هو وسابقوه لان يكون للظاهرة مصطلح آخر هو الانصراف او الصرف .

---

(١) البرهان في وجوه البيان ــ ١٥٢ .

(٢) البديع في نقد الشعر ــ ٢٠٠ .

(٣) البديع ــ ٥٨ .

ومضى الالتفات بعد ذلك يدور حول هذا المعنى عند البلاغيين الذين تلوا ابن المعتز مع لمحات اضافية عند بعضهم .

فأبو هلال العسكري لم يورد له تعريفاً بل ذكر له نوعين وضح من خلالهما بواعث الالتفات .

والباقلاني (٤٠٣هـ) وضح المقصود من كلام الاصمعي الذي مرّ بنا حين اشار إلى التفاتات جرير .

قال : «ومعنى الالتفات انه اعترض في الكلام» (١) .

ويمضي بعد ذلك ليوضح لنا معنى الاعتراض فيقول :

«فمتى خرج عن الكلام الاول ثم رجع اليه على وجه يلطف كان ذلك التفاتاً»(٢)

ولقد جاء مصطلح الالتفات عند الزمخشري (٥٣٨هـ) من خلال تفسيره للآيات التي وردت على هذا الاسلوب . ويعني عنده صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة وعن الغيبة إلى المتكلم . قال :

«هذا يسمى الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى المتكلم وعلى عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه» (٣) .

اما قوله (صرف الكلام) الذي نعتده مصطلحاً آخر للالتفات فقد جاء في سياق تساؤله عن بواعث هذه الظاهرة .

قال : «فان قلت ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة قلت...» (٤)

ومن الجدير بالذكر في هذا الموضع ان الزمخشري حين جعل الالتفات من فنون علم البيان لم يكن يعني بعلم البيان القسم الثاني من علوم البلاغة.

(١ ، ٢) اعجاز القرآن — ٩٩ .
(٣) الكشاف — ١/٦٤ — ٦٥ .
(٤) نفسه — ٢/٢٣١ .

فالتقسيم — وان اشار اليه الزمخشري في مقدمة الكشاف (١) لم يظهر الا على يد السكاكي بمرضوعاته ومصطلحاته .

فالبيان عند الزمخشري ليس الا الظاهرة البلاغية التي تؤدي مهمة فنية للتعبير عن معنى معين . ولم يضع الزمخشري فواصل بين العلمين «لتشابكهما في دلالات الالفاظ والتراكيب وفي اسرار الاعجاز القرآني ولطائفه الدقيقة» (٢)

ثم وجدت القرطبي (٦٧١هـ) يورد عند تفسيره لسورة الفاتحة مصطلحاً آخر وهو مصطلح (التلوين) .

قال : «قوله تعالى (اياك نعبد) رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلوين» (٣) .

ومما يحملنا على ان نجعل التلوين مصطلحاً آخر للالتفات أن القرطبي حين شخّص الظاهرة لم يذكر الالتفات مع انه كان معروفاً عند من قبله ، ولو عرفه لذكره .

ومما يعزز اعتدادنا لتلوين مصطلحاً آخر للالتفات ما ذكره الزركشي من أن احمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي (٤٢٧ هـ) سماه المتلون (٤) .

وحين نقع على هذا المصطلح الجديد عند مفسر كالثعلبي من القرن الخامس وعند القرطبي في القرن السابع نجد ان اقتراح الدكتور حفني محمد شرف باطلاق اسم « تلوين الخطاب » (٥) على هذا الفن يكون غير جديد . ويبدو انه لم يقف على ما ذكره القرطبي أو ما نقله الزركشي عن الثعلبي ، ولو علم بذلك لأشار اليه .

الا ان مصطلح الالتفات قد استقر في مباحث البلاغة . واصبحت المصطلحات الاخرى كالصرف أو الانصراف او العدول أو النقل أو التلوين بمثابة نعوت دالة على هذا المصطلح .

(١) نفسه — المقدمة — ١٦/١ .
(٢) البلاغة تطور وتاريخ — ٢٢٢ .
(٣) الجامع لاحكام القرآن — ٤٢٣ .
(٤) البرهان في علوم القرآن — ٢٤٦/٢ — وتنظر ترجمة الثعلبي في انباه الرواة ١١٩/١ .
(٥) التصوير البياني — ٤٢٣ .

وقد عبر ابن يعقوب المغربي (١١١٠ هـ) عن استقرار مصطلح الالتفات بقوله : « ويسمى هذا النقل بجميع أقسامه عند علماء المعاني التفاتاً » (١)

وبذلك يسعنا أن نستغني عن ايراد تعريفات اخرى للالتفات لنفرغ الى عرض معالجات البلاغيين لمختلف ظواهر الالتفات وموضوعاته .

وجوه الالتفات :

يجد الباحث في دراسته لوجوه الالتفات أن البلاغيين ذهبوا في تحديد هذه الوجوه مذهبين :

١ ـ مذهب التخصيص : وهو قصر الالتفات على الوجوه الثلاثة المعروفة : التكلم والخطاب والغيبة ـ كما ورد عند اسامة بن منقذ في قوله : « وهو أن يرجع من الخبر الى الخطاب ومن الخطاب الى الخبر » (٢)

وكما ذكر حازم القرطاجني « وهو عند الجمهور التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة ـ اعني التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها » (٣) .

ومن أجل أن يتضح لنا هذا المذهب نعرض أمثلة من القول البليغ مع الاشارة الى وجه الالتفات فيه :

أ ـ قال تعالى : « هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » (٤) .

فقد عدل عن الخطاب في قوله تعالى : (كنتم) الى الغيبة في قوله تعالى (بهم)

---

(١) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ٤٦٣/١ .
(٢) البديع في نقد الشعر ـ ٢٠٠ .
(٣) منهاج البلغاء وسراج الادباء ـ ٣٦٢ .
(٤) سورة يونس ـ ٢٢ .

ب — قال تعالى : « الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . اياك نعبد واياك نستعين » (١) .

نقد عدل عن الغيبة في الآيات الثلاث الاول الى الخطاب في قوله تعالى : اياك نعبد واياك نستعين .

ج — قال عنترة :

شطت مزار العاشقين فأصبحت
عسراً علي طلابك ابنة مخرم (٢) .

فقد كان حديث عنترة من ابنة مخرم على الغيبة ، ثم عدل عن الغيبة فأخذ يخاطبها مباشرة .

د — قال النابغة الذبياني :

يسادار مية بالعلياء فالسند
أقوت وطال عليها سالف الأمد (٣)

وكان القياس أن يقول : أقويت وطال عليك ... الا انه عدل عن الخطاب الى الغيبة .

٢ — مذهب التعميم : ويرى اصحاب هذا المذهب ان لا ينحصر هذا الاسلوب في التعبير الفني بثلاثة محاور فتضيق به السبل امام اداء وظيفته الفنية. وحين نقف ازاء تفاصيل هذا المذهب يتبين لنا وهم حازم القرطاجني من ان المذهب الاول هو مذهب الجمهور. وسنجد ان اكثر البلاغيين وسعوا نطاق هذا الفن وأدرجوا تحته اموراً كثيرة تتكشف من خلالها عبقرية التعبير العربي وسعة دلالته في الاداء الفني .

---

(١) سورة الفاتحة .

(٢) ديوان عنترة — . . : تحقيق سعيد المولوي — المكتب الاسلامي — دمشق ١٩٧٠ — ص ١٨٦ .

(٣) ديوان النابغة الذبياني — صنعة ابن السكيت : تح : د. شكري فيصل — دار الفكر — لبنان — ص ٢ .

وليس مذهب التعميم جديداً عند متأخري البلاغيين بل ورد بصريح العبارة في اول تعريف اصطلاحي وصل الينا وهو تعريف ابن المعتز حين قال عن الالتفات :

«هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الاخبار. وعن الاخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك. ومن الالتفاتات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر» (١) .

والذي يهمنا من مقولة ابن المعتز الجزء الاخير منها حين وسع نطاق الانصراف. وعلى وجازة هذه الاشارة وعدم تحديد ابن المعتز وجوه الانصراف الأخرى فانه مهّد السبيل لمن بعده ليفيضوا في عرض الوجوه التي تندرج تحت اسم الالتفات ولا يبعد عن مفهومه ووظيفته .

ولعل قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) هو أقدم من اشار إلى وجه جديد لا يتصل بالوجوه الثلاثة المعروفة حين ذكر الالتفات جاعلاً اياه من نعوت المعاني . «ومن نعوت المعاني الالتفات. وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى، فكأنه يعترضه إما شك فيه او ظن بأن راداً يرد عليه قوله او سائلاً يسأله عن سببه او يخل الشك فيه. مثال ذلك قول المعطل الهجيمي يمدح بني رهم بن هذيل :

تبيـن صُـلاة الحـرب منـا ومنهـم
اذا مـا التقينـا والمسالـم بـادن

فقوله : والمسالم بادن: رجوع على المعنى الذي قدمه حين بين ان علامة صلاة الحرب ان المسالم يكون بادناً والمحارب ضامراً. وقول الرماح بن ميادة :

فـلا صرمـه يبـدو وفـي اليـأس رحـمة
ولا وصله يصفـو لنـا فنكارمـه

فكأنه بقوله : وفي اليأس رحمة: التفت إلى المعنى لتقديره ان معارضاً يقول له: وما تصنع بصرمه؟ فقال : لأن في اليأس راحة» (٢) .

(١) البديع — ٥٨ .
(٢) نقد الشعر — ٥٣ .

وليس بعد قدامة من اشار إلى سعة مدلول الالتفات وتعدد وجوهه حتى نبلغ ضياء الدين ابن الاثير (٦٣٧هـ) ليتولى دراسة هذا الفن بافاضة وطول باع ، وليكشف لنا عن اسراره . فهو في « المثل السائر » يسميه « شجاعة العربية» (١) .

الا انه في «الجامع الكبير» يجعله نوعاً من انواع شجاعة العربية (٢) .

وقد اخذ ابن الاثير اسم «شجاعة العربية» من ابن جني في الخصائص (٣) . حين جعلها عنواناً لموضوعات متعددة لم يكن الالتفات واحداً منها. وهو لم يعرض للالتفات مصطلحاً او موضوعاً في الخصائص، ولكنه تحدث عنه في كتابه «المحتسب» وهو يبين وجود شواذ القراءات والايضاح عنها.

عرض ابن جني للحديث عن قوله تعالى : «واتقوا يوماً ترجعون فيهِ إلى الله» (٤) ، حيث اورد قراءة الحسن بالياء : «واتقوا يوماً يرجعون فيه إلى الله » قال : «انه ترك الخطاب إلى لفظ الغيبة كقوله تعالى : حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة ... » وقد شاع واتسع عنهم حمل ظاهر اللفظ على معقود المعنى ... وهذا فاش عنهم » (٥) .

وحري بنا — من بعد — ان نتلبث عند ابن الاثير لنقف على رؤيته في بيان وجوه الالتفات وانواعه عنده .

ينقسم الالتفات عنده إلى ثلاثة اقسام قد فصل القول فيها تفصيلاً لا يتسع المقام لايراده ، وحسبنا ان نورد الانواع مع شيء مما تمثل به لكل نوع «القسم الاول : في الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة» (٦)

---

(١) المثل السائر ١٧١/٢ .
(٢) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور — ٩٨ .
(٣) الخصائص : ٣٦/٢ .
(٤) سورة البقرة — ٢٨١ .
(٥) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات — ١٤٥/١ .
(٦) المثل السائر ١٧١/٢ .

وضرب مثلاً لذلك عدة آيات من القرآن الكريم موضحاً وجوه الالتفات فيها. ومنها سورة الفاتحة. وقوله تعالى : «وما لي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون» (١) وكذلك اورد ابياتاً لابي تمام (٢) والمتنبي (٣) .

والذي يبدو لنا لأول وهلة انه لم يصرح بالمتكلم طرفاً ثالثاً . الا انه في الحقيقة ذكره بعنوان « خطاب النفس » حين عرض لقوله تعالى : «وما لي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون » حين قال :

«ومما ينخرط في هذا السلك ايضاً الرجوع من خطاب النفس الى خطاب الجماعة » (٤) ثم أورد الآية مثلاً لذلك .

وواضح من الآية أن المقصود بخطاب النفس هو المتكلم .

« القسم الثاني : في الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الأمر . وعن الفعل الماضي الى فعل الأمر » (٥) : وضرب مثلاً للجزء الأول : قوله تعالى « ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك . وما نحن لك بمؤمنين . ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال : اني اشهد الله . واشهدوا اني بريء مما تشركون » (٦)

قال ابن الأثير معقباً على الآية في بيان وجه الالتفات فيها . « فإنه انما قال : اشهد الله واشهدوا . ولم يقل : واشهدكم . ليكون موازناً له وبمعناه » (٧) واما الجزء الثاني من هذا القسم فقد جاء له بمثل قوله تعالى : « قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين » (٨).

(١) يس /٢٢ – المثل السائر ١٧٨/٢ .
(٢) المثل السائر ١٧٨/٢ .
(٣) المثل السائر ١٨٠/٢ .
(٤) المثل السائر ١٧٧/٢ .
(٥) المثل السائر ١٨٣/٢ .
(٦) هود – ٥٣، ٥٤ – والمثل السائر ١٨٣/٢ .
(٧) المثل السائر ١٨٣/٢ .
(٨) الاعراف /٢٩ – والمثل السائر ١٨٨/٢ .

قال معقباً على الآية في بيان وجه الالتفات فيها : « وكان تقدير الكلام : أمر ربي بالقسط واقامة وجوهكم عند كل مسجد . فعدل عن ذلك الى فعل الأمر للعناية بتوكيده في نفوسهم » (١) .

« القسم الثالث » في الاخبار عن الماضي بالمستقبل وعن المستقبل بالماضي (٢)

فضرب لذلك مثلاً قوله تعالى : « والله الذي ارسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها . كذلك النشور » (٣)

قال : « فانه انما قال : « فتثير » مستقبلاً وما قبله وما بعده ماض لذلك المعنى الذي أشرنا اليه . وهو حكاية الحال التي يقع فيها اثارة الريح السحاب واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة » (٤)

ولابن الأثير منهج آخر في كتابه « الجامع الكبير » حين جعل الالتفات قسماً من ستة أقسام اجتمعت تحت عنوان « شجاعة العربية » ثم قسم الالتفات الى ثلاثة أضرب جاء الضرب الثالث منها جديداً بالقياس الى ما ذكره في « المثل السائر » وهو .

الرجوع من خطاب التثنية الى خطاب الجمع ومن خطاب الجمع الى خطاب الواحد . ثم عاد فجعل الاخبار عن الماضي بالمضارع وعن المضارع بالماضي قسماً من أقسام شجاعة العربية وليس ضرباً من ضروب الالتفات على خلاف ما ذكر في المثل السائر (٥) .

وحين نقف عند ابن ابي الاصبع المصري (٦٥٤ هـ) نجد انه اشار الى قسم من أقسام الالتفات جاء في القرآن الكريم ولم ينبه اليه احد من قبله .

قال : « جاء في القرآن من الالتفات قسم غريب جداً لم اظفر في الشعر بمثاله .

---

(١) المثل السائر ٢/١٨٤ .
(٢) المثل السائر ٢/١٨٥ .
(٣) فاطر /٩ — والمثل السائر ٢/١٨٥ .
(٤) المثل السائر ٢/١٨٦ .
(٥) الجامع الكبير — ٩٨ — ١٠٥ .

وهو أن يقدم المتكلم في كلامه مذكورين مرتين ، ثم يخبر عن الاول منهما وينصرف عن الاخبار عنه الى الاخبار عن الثاني ، ثم يعود فينصرف عن الاخبار عن الثاني الى الاخبار عن الاول كقوله : « ان الانسان لربه لكنود ، وانه على ذلك لشهيد » انصرف عن الاخبار عن الانسان الى الاخبار عن ربه تعالى ، ثم قال منصرفاً عن الاخبار عن ربه الى الاخبار عن الانسان « وانه لحب الخير لشديد ، وهذا يحسن ان يسمى (التفات الضمائر) » (١) .

والذي يستفاد من كلام ابن ابي الاصبع انه قد حفز الهمم الى التأمل الطويل في النصوص البليغة لاكتشاف ظواهر اخرى تتصل بالالتفات ، وجعل ما اكتشفه مناط الاقتضاء والتمثل ، احياء لخصائص كامنة في لغتنا خفيت على الدارسين .

ثم نجد وجوه الالتفات تتسع في كتاب (جوهر الكنز) لنجم الدين أحمد بن اسماعيل ابن الاثير الحلبي (٦٣٧هـ) (٢) . فقد احصى من اقسامه ووجوهه احد عشر قسماً (٣) .

وللكتاب فضيلة الجمع لوجوه كثيرة متعددة للالتفات في موضع واحد . والجمع بحدّ ذاته يمثل نظرة التعميم لدلالات الالتفات .

قال الحلبي موضحاً منهجه في كتابه : «ولم اتعرض إلى شيء سوى ذكر الباب وحده وشاهده وما لعله يمكن من الفرق بينه وبين الباب المضاهي له ، وأعرضت عن ذكر الشواهد والاختلاف في الحدود» (٤) .

ومن خلال ما جمع في تلخيصه يتضح لنا ان ما اورده من مسائل ، تنطبق

---

(١) بديع القرآن — ٤٥ .

(٢) وهو تلخيص لكتاب «كنز البراعة في ادوات ذوي البراعة» لعماد الدين اسماعيل بن أحمد ابن سعيد الذي تولى كتابة السر للسلطان الاشرف خليل بعضاً من عامي ٦٩١ — ٦٩٢هـ، ثم قتل في وقعة حمص ٦٩٩هـ — انظر — جوهر الكنز — المقدمة : ٧.

(٣) جوهر الكنز — ١١٩ — ١٢٢ .

(٤) جوهر الكنز — ٢٨ .

عليه مواصفات الالتفات من حيث توافر عنصر العدول والانصراف وفق بواعث تكمن وراء ذلك .

ووقف يحيى بن حمزة العلوي صاحب الطراز (٧٤٥هـ) بين مذهبي التخصيص والتعميم موقف المرجح لمذهب التعميم لما وجد فيه من اتساع في الكلام وشمولية دلالته الظاهرة .

قال العلوي : «ومعناه في مصطلح علماء البلاغة هو العدول من اسلوب في الكلام إلى اسلوب آخر مخالف للأول . وهذا احسن من قولنا : هو العدول من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة. لأن الاول يعم سائر الالتفاتات كلها . والحد الثاني انما هو مقصور على الغيبة والخطاب لا غير» (١) .

ثم ذكر تلك الانواع التي اوردها ابن الاثير في المثل السائر ولخص من بعد منهج ابن الاثير في تحديد الالتفات والوقوف عند ظواهره حيث قال :

«وحاصل ما قاله — اي ابن الأثير — هو أنه لا يختص بضابط يجمعه ولكن يكون على حسب مواقعه في البلاغة وموارده في الخطاب . وآل كلامه إلى ان الناظر انما يعرف حسن مواقع الالتفات اذا نظر في كل موضع يكون فيه الالتفات. فيعرف قدير بلاغته بالاضافة إلى ذلك الموقع بعينه» (٢).

ولا نغادر هذه الخلاصة من غير ان نعقب عليها بملحظين :

١ــ لم يرد عن ابن الاثير ما يشير إلى ان تحديد انواع الالتفات لا يختص بضابط . بل ذكر لكل نوع ضوابطه .

٢ — ان هذه الخلاصة مقبولة لذاتها. لأنها تحفز على التأمل والاستنباط . والتوصل إلى صور وألوان من الالتفات جديدة تبتعث في الموضوع حيوية واتساع دلالة .

ويحبذ بهاء الدين السبكي (٧٧٣هـ) أن يتسع نطاق دلالة الالتفات لتشمل

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز — ١٣٢/٢ .
(٢) المصدر نفسه — ١٣٢/٢ .

موضوعات أخرى غير الذي عرف عند سابقيه . واشار إلى بعض هذه الانواع بقوله :

«ومنهم من يجعل الالتفات نقل الكلام من حالة إلى أخرى. وجعل منه ابن النفيس في طريق الفصاحة التعبير عن المضارع بالماضي وعكسه . وجعل غيره منه الانتقال من خطاب الواحد أو الاثنين او الجمع لغيره . وهو أقرب شيء للالتفات المشهور لمشابهته له في الانتقال من احد أساليب ثلاثة لآخر. وفي انقسامه إلى ستة أقسام» (١) .

وفي اشارة السبكي إلى عنصر المشابهة في الانتقال تحديد للمنطلق الفني للدارسين لتوسيع نطاق الالتفات .

وحين يبلغ بنا المطاف إلى بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي صاحب البرهان في علوم القرآن (٧٩٤هـ) نجد انه جرى في مضمار من سبقه في جمع شتات موضوع الالتفات ووجوهه .

فالالتفات عنده « هو نقل الكلام من اسلوب الى آخر » (٥٥ .) ومن خلال هذا التعريف يتضح لنا انه لم يقصر النقل على الجهات الثلاث المعروفة : المتكلم والمخاطب والغائب . بل تجاوزها الى الوجوه التي ادرجها سابقوه في الالتفات . الا ان الذي يلفت النظر عند الزركشي أن هذه الوجوه جعلها مما يقرب من الالتفات .

وهذه الوجوه هي :

١ — الانتقال من خطاب الواحد الى خطاب الاثنين .

٢ — من خطاب الواحد الى خطاب الجمع .

٣ — من خطاب الاثنين الى خطاب الواحد .

٥ — من خطاب الجمع الى خطاب الواحد .

---

(١) عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح — ٤٦٤/١ .

(٢) البرهان في علوم القرآن — ٣١٤/٣ .

٦ — من خطاب الجمع الى خطاب الاثنين .

٧ — من الماضي الى الأمر .

٨ — من المستقبل الى الأمر .

٩ — من الماضي الى المستقبل .

١٠ — من المستقبل الى الماضي (١) .

وحين عدّ الزركشي هذه الوجوه مما يقرب من الالتفات لم اجد له مايبرر تردده في اعتدادها من الالتفات على وجه الجزم والتأكيد . مع ان ابن الاثير وابن قيم الجوزية قد سبقاه الى عدّها من الالتفات .

الا ان اموراً ذكرها الزركشي في (البرهان) قد استوقفتني مما وجدت ان لها صلة وثيقة بالالتفات . ولعل في ايرادها ما يحفز الى اعتدادها من وجوه الالتفات .

المسألة الاولى : نقلها الزركشي عن الزمخشري في تفسيره الكشاف . وقد أوردها في باب ارتباط الآيات بعضها ببعض .

وقف عند ظاهرة عطف جملة على ما قبلها بحيث يشكل على القارىء وجه الارتباط بينهما . واورد أول شاهد على هذه الظاهرة قوله تعالى :

« يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج . وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » (٢) .

قال الزركشي : « فقد يقال : أي رابط بين احكام الأدلة وبين حكم اتيان البيوت » (٣) ثم أورد الزركشي جواب هذه المسألة من وجوه كثيرة يهمنا ان نقف عند الوجه الاول لما له من وثيق الصلة بموضوعنا .

---

(١) تنظر هذه الوجوه في (البرهان) من ٣٢٣ — ٣٣٧ — ج ٣ .

(٢) البقرة — ١٨٩ .

(٣) البرهان في علوم القرآن — ٤٠/١ .

قال : « احدهما : كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الحكمة في تمام الأهلة ونقصانها ، معلوم أن كل مايفعله الله فيه حكمة ظاهرة ومصلحة لعباده ، فدعوا السؤال عنه ، وانظروا في واحدة تفعلونها انتم ، مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها براً » (١) .

وما يستخلصه المتأمل في هذا الكلام أن الله صرفهم عن موضوع ما كان لهم أن يسألوا عنه أو أن يشغلوا أنفسهم به الى أمر آخر جدير بالاهتمام .

والصرف أو الانصراف هو من معاني الالتفات كما اسلفنا القول فيه . ومما يجدر بالاشارة الى أن السكاكي جعل هذه الآية في معرض حديثه عن اخراج الكلام على غير مقتضى الظاهر . وجعل الآية من امثلة « الاسلوب الحكيم » واشار الى أن الحديث قد صرف عن وجهته الى وجهة اخرى .

قال : « ... فأجيبوا ببيان المصرف ينزل سؤال السائل منزل سؤال غير سؤاله لتوخي التنبيه له بألطف وجه على تعديته من موضوع سؤال هو أليق بحاله ان يسأل عنه » (٢) .

والمسألة الثانية : هي نقل الكلام الى غيره .

قال : « وانما يفعل ذلك اذا ابتلى العاقل بخصم جاهل متعصب فيجب أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة ، لأنه كلما خوّضه معه اكثر كان بعده عن القبول أشد . فالوجه حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة وأن يؤخذ في كلام آخر اجنبي ويطنب فيه بحيث ينسى الأول . فاذا اشتغل خاطره به أدرج له في أثناء الكلام الاجنبي مقدمة تناسب ذلك المطلب ليتمكن من انقياده » (٣) .

---

(١) المصدر نفسه ١/٤٠ – ٤١ .

(٢) مفتاح العلوم – ١٧٥ .

(٣) البرهان في علوم القرآن – ١/٤٠ – ٤١ .

وذكر الزركشي انه نقل ذلك عن الامام ابي الفضل (١) في كتاب (درة التنزيل) اذ جعل منه قوله تعالى : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود » (٢)

قال : ان قوله (واذكر) ليس متصلاً بما قبله بل نقلاً لهم عما هم عليه » (٣)

وأرى أن هذا النوع لايبعد كثيراً في مراميه الأساسية عن النوع الأول ، وكلاهما عدول عن كلام لا حاجة الى الاستمرار فيه ، والأخذ في كلام آخر جديد لا علاقة له بالأول . وقد يكون الهدف الخاص مختلفاً في كلتا المسألتين . ولكن الاساس واحد .

أما المسألة الثالثة : فهي انه عدّ بناء الفعل للمفعول — أي المجهول — بعد خطاب فاعله أو تكلمه من باب الالتفات .

قال : « فيكون التفاتاً عنه كقوله تعالى (غير المغضوب) بعد (انعمت) فان المعنى : غير الذين غضبت عليهم (٤) .

وواضح ان الباعث على هذا العدول من المعلوم الى المجهول تنزيهاً لله تعالى عن صفة الغضب باسلوب الخطاب المباشر .

ولقد أشار السبكي الى ان ابن الاثير الحلبي قد ذكر هذا النوع في كتابه « كنز البلاغة » (٥) .

---

(١) ذكر محمد ابو الفضل ابراهيم محقق كتاب البرهان للزركشي أن ابا الفضل هو الامام فخر الدين الرازي، وان (درة التنزيل وغرة التأويل) هو من كتبه التي توجد منه نسخ خطية بدار الكتب المصرية، ينظر هامش ص ١١٢ — ج٣ .
الا ان الباحثين الذين استقصوا مؤلفات الرازي لم يذكروا هذا الكتاب في مسود كتبه، ومنهم الدكتور محسن عبد الحميد الذي استدرك على من سبقه في دراسة الرازي — ينظر: الرازي مفسراً — ص ٣٥ — ٤٧ — دار الحرية — ١٩٧٤ .

(٢) سورة ص : ١٧ .
(٣) البرهان في علوم القرآن — ٣٣٣/٣ .
(٤) المصدر نفسه : ٣٢٥/٣ .
(٥) عروس الافراح — ٤٧٨/١ .

بواعث الالتفات

يتساءل المتأمل في النصوص البليغة التي ترد فيها ظاهرة الالتفات عن البواعث والاسرار التي تكمن وراء هذا الانتقال من صورة اسلوبية إلى اخرى ومن لون من التعبير إلى آخر مغاير، ولايسع من له أدنى إلمام بالعربية وأسس ابنيتها الفنية والاسلوبية ان يزعم ان الأمر لايخضع لبواعث تدعو إلى الانتقال والتغيير. الا ان الباحث لامناص له من ان يتساءل عن هذه البواعث.

إن للبلاغيين — والمفسرين منهم بخاصة — اقوالاً شتى في بيان تلك البواعث الا انهم لم يجمعوها في مواضع مستقلة من كتبهم ومباحثهم، بل هم يأتون على ذكر الباعث عند الوقوف عند شاهد معين، كما قال ابن قيم الجوزية:

«ولايخلو شيء من ذلك من حكم جزئية تليق بذلك الكلام الخاص» (١)

ومن اقدم من تحدث في براعث الالتفات قدامة بن جعفر، وقد مرّ بنا كلامه على الالتفات وقد بناه على ذكر البواعث اكثر من تعرضه لمعناه وحدوده. ومن المناسب في هذا الموضع — اتماماً للفائدة وحفاظاً على وحدة الموضوع — أن اورد حديثه عن الالتفات.

«وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى فكأنه يعترضه إماشكّ أو ظنّ بأن يردّ عليه قوله، او سائلاً يسأله عن سببه فيعود راجعاً إلى ماقدمه. فاما ان يذكر سببه او يجلّي الشك فيه»(٢)

ومن اهم مايلقانا في موضوع البواعث مقولة أذاعها الزمخشري (٥٣٨)هـ وجعلها محوراً رئيساً لكل البواعث الجزئية للالتفات. قال في تفسيره: (اياك نعبد) من سورة الفاتحة:

«فان قلت: لم عدل عن لفظ الغيب الى لفظ الخطاب. قلت هذا يسمى الالتفات في علم البيان. قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان — ٩٨ .

(٢) نقد الشعر — ٥٣ .

الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم.... على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولان الكلام اذا نقل من اسلوب إلى اسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وايقاظاً للاصغاء اليه من اجرائه على اسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد»(١)

اذن هو يرى ان الباعث الرئيس للالتفات هو توخّي التطرية في الكلام وايقاظ النفوس للاصغاء ورفع الملل عنها باجرائه على اكثر من اسلوب

ولقد تصدى ابن الأثير لمناقشة الزمخشري في ماذهب اليه من أمر هذا الباعث الرئيس.

قال ابن الاثير: «...وليس الأمر كما ذكره، لأن الانتقال في الكلام من اسلوب إلى اسلوب اذا لم يكن الا تطرية لنشاط السامع وايقاظاً للاصغاء اليه، فان ذلك دليل على ان السامع يملّ من اسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطاً للاستماع. وهذا قدح في الكلام لاوصف له، لأنه لو كان حسناً لما ملّ، ولو سلمنا إلى الزمخشري ماذهب اليه لكان انما يوجد ذلك في الكلام المطول. ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك لأنه قد ورد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ويكون مجموع الجانبين معاً يبلغ عشرة الفاظ او أقل من ذلك. ومفهوم الزمخشري في الانتقال من اسلوب الى اسلوب انما يستعمل قصداً للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل اليه لا قصداً لاستعمال الاحسن. وعلى هذا فاذا وجدنا كلاماً قد استعمل في جميعه الايجاز ولم ينتقل عنه او استعمل في جميعه الاطناب ولم ينتقل عنه وكان كلا الطرفين واقعاً في موقعه قلنا: هذا ليس بحسن. اذ لم ينتقل فيه من اسلوب، وهذا قول فيه مافيه» (٢)

ان اعتراض ابن الاثير هو اعتراض على عبارة الزمخشري من حيث دلالتها على العموم. وعندئذ يكون ابن الاثير على حق في ما ذهب اليه. ذلك

---

(١) الكشاف — ١/٦٤ — ٦٥ .

(٢) المثل السائر — ٢/١٧٢ .

ان ليس لتطرية النشاط وايقاظ الاصغاء ودفع السأم ضوابط يجري بمقتضاها المتحدث، ويخشى ان يكون الأمر — من ثم — خاضعاً لأهواء لا تحقق فوائد مرجوة في ايراد فن بلاغي بعينه في موقعه المراد، ولكن حين نمضي مع الزمخشري في ثنايا تفسيره (الكشاف) نجد أنه يقف عند خصوصية الالتفات عند تفسيره للآيات، وعندئذ يكون ابن الأثير قد أساء الظن بالرجل. وكان عليه أن يوجه مقولة النظرية وايقاظ الاصغاء توجيهاً يتسق مع البواعث الخاصة الدقيقة التي نبهنا اليها الزمخشري في مواضع شتى من تفسيره .

ومن البواعث الدقيقة نعرض على سبيل المثال لا الحصر قوله في تفسير سورة الفاتحة :

قال : «.... وقد تختص مواقعه بفوائد. ومما اختص به هذا الموقع انه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء، وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات. فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل : اياك يامن هذه صفاته تخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ليكون الخطاب ادل على ان العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به» (١).

ومن ذلك ايضاً قوله في تفسير قوله تعالى : «هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ...» (٢)

قال : «فان قلت : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت : المبالغة. كأن يذكر لغيرهم حالهم ليعجّبهم منها ويستدعي منهم الانكار والتقبيح» (٣) .

ومن ذلك ايضاً قوله في تفسيره قوله تعالى : « والله الذي ارسل الرياح

---

(١) الكشاف — ١/٦٤ — ٦٥ .
(٢) يونس : ٢٢ .
(٣) الكشاف : ٢/٢٣١ .

فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور» (١) قال : « فان قلت : لم جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : ليحكي الحال التي تقع فيها اثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو فهم المخاطب أو غير ذلك (٢).

ولعل في هذه الامثلة الثلاثة ما يكفي لتصحيح الظن ان الزمخشري ذهب في مقولة التطرية وايقاظ الاصغاء مذهباً عشوائياً ، وتحليله للآيات السابقة وغيرها وتشخيصه الفني الدقيق للبواعث الخاصة دليل واف على ادراك الزمخشري لمهمة الالتفات اسلوباً تحقق به فوائد وغايات جليلة .

ومن المناسب أن نعود الى ابن الاثير لنقف على مايراه من البواعث التي تكمن وراء ظاهرة الالتفات .

يقول ابن الأثير بعد فراغه من مناقشة الزمخشري : « والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب الى الغيبة أو من الغيبة الى الخطاب لا يكون الا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من اسلوب الى اسلوب غير أنها لاتحد بحد ، ولا تضبط بضابط ، لكن يشار الى مواضع منها ليقاس عليها غيرها » (٣)

ان ماذهب اليه ابن الاثير هو عين ماذكره الزمخشري . ولقد مرّ بنا قوله في تفسير سورة الفاتحة « وقد تختص مواقعه بفوائد » .

وليس ماذكره ابن الأثير الا توضيحاً وتفصيلاً لكلام الزمخشري . ولو وقف عنده ابن الأثير لما آخذه على مقولة التطرية وايقاظ الاصغاء .

ومما اشار اليه السكاكي من خصوصيات البواعث حديثه عن الالتفات

---

(١) فاطر — ٩ .

(٢) الكشاف — ٣٠٢/٣ .

(٣) المثل السائر — ١٧٣/٢ .

بوضع اسم الاشارة موضع الضمير في قوله الشاعر :

كم عاقل عاقل اعيت مذاهبه
وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الاوهام حائرة
وصيّر العالم النحرير زنديقا

فقد ذهب في تعليل ذلك : «اما لأنه اختص بحكم بديع عجيب الشأن .... واما لأنه قصد التهكم بالسامع والسخرية منه. كما اذا كان فاقد البصر، او لم يكن ثم مشار اليه أصلاً او النداء على كمال بلادته بأنه لا يميز بين المحسوس بالبصر وغيره، او على كمال فطانته وبعد غور ادراكه بأن غير المحسوس بالبصر عنده كالمحسوس عند غيره» (١) .

واشار ابن قيم الجوزية إلى ان خصوصية تحاشي سوء الأدب امام عظيم. ثم ايقاع التوبيخ على متجاوزين باسلوب مغاير اذا اجتمع الأمران على صعيد واحد.

قال : «وان القول اذا اشتمل على سوء ادب على عظيم كان الأولى التعبير عنه بلفظ الغائب. إذ الاقدام على ذلك قدّام الحاضر أفحش وأكثر جرأة. والجناب العظيم ينبغي أن يحاشى من ذلك. يبين ذلك قوله تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إدّاً) ثم لما أراد توبيخهم على هذا القول عبر عنه بالحضور لأن توبيخ الحاضر أبلغ في الاهانة» (٢) .

والزركشي وإن أخذ عن الزمخشري مقولة التطرية وتجديد النشاط وصيانة الخاطر من الملال والضجر. إلا انه نبّه إلى ان تلك المقولة لا تكفي لبيان القيمة الفنية والمعنوية لاسلوب الالتفات حين ذكر منازعة القاضي شمس الدين ابن الجوزي في قوله :

«الظاهر أن مجرد هذا لا يكفي في المناسبة. فانا رأينا كلاماً اطول في هذا

(١) مفتاح العلوم : ١٠٥ – ١٠٦ .

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان – ٩٨ .

والاسلوب محفوظ» (١) .

ومن الأمور الخاصة التي تدعو إلى الالتفات عند الزركشي :

١ــ قصد تفخيم المخاطب : ذكر ذلك في حديثه عن الالتفات من قوله تعالى: (الحمد لله رب العالمين) وما بعدها إلى قوله تعالى : (إياك نعبد) .

٢ ــ التأدب مع الخطاب: بالالتفات عن الخطاب إلى الغيبة، كما في قوله تعالى: (الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً)

٣ ــ التنبيه على ماحق الكلام ان يكون وارداً عليه. وضرب مثلا لذلك قوله تعالى: (فيها يفرق كل أمر حكيم، أمراً من عندنا ،انا كنا مرسلين ، رحمة من ربك، انه هو السميع العليم »(٢)

قال: اصل الكلام: انا كنا مرسلين رحمة منا، ولكنه وضع الظاهر موضع المضمر للانذار بأن الربوبية تقتضي الرحمة للقدرة عليهم » (٣)

٤ ــ قصد المبالغة: وضرب مثلا لذلك قوله تعالى: «حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم» (٤)

٥ ــ قصد الدلالة على الاختصاص: وذكر قوله تعالى: «والله الذي ارسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها » (٥)

٦ ــ قصد الاهتمام: وضرب مثلا لذلك قوله تعالى: «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها: أئتيا طوعاً او كرهاً، قالت: اتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً .ذلك تقدير العزيز العليم» (٦)

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/٣٢٥ .
(٢) الدخان ــ ٤ ــ ٦ .
(٣) البرهان في علوم القرآن ــ ٣/٣٢٩ .
(٤) يونس ٢٢ .
(٥) فاطر ــ ٩ .
(٦) فصلت : ١١ .

٧ -- قصد التوبيخ: وأورد قوله تعالى: «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، لقد جئتم شيئاً إداً» (١)

ولابد لي ان اوضح في هذا الموضع انني لم أهدف إلى حصر بواعث الالتفات استقصاءاً. بل كان الهدف أن ابين ان الالتفات ليس ظاهرة اعتباطية يراد منها التنوع الكيفي في الاساليب من غير أن تكمن وراء ذلك التنوع او الانتقال غاية تحقق فائدة. ولعل في ماأوردنا سبيلا إلى اثبات ذلك بما فيه الغناء.

التجريد والالتفات :

ان الذي حملني على عقد هذا الفصل ماأشار اليه بهاء الدين السبكي في عروس الافراح بعد فراغه من دراسة الالتفات من ان ثمة أمراً ينبغي التنبه اليه وهو أن «ربما اشكل التمييز بين حقيقته -- اي الالتفات -- وحقيقة التجريد ...» (٢)

وخلاصة ماذهب اليه أن هناك مواضع يلتقي فيها الالتفات والتجريد. كما في قول الشاعر علقمة الفحل:

طحـــابك قلـــب في الحسـان طروب
بعيد الشبـــاب حين حان مشيب
تكلفنـــي ليلى وقـــد شـــط وليهـا
وعادت عواد بيننـا وخطوب (٣)

يقول السبكي: «وفي قوله (طحا بك) على رأي السكاكي جرد من نفسه حقيقة مثلها وخاطبها. فالضمير واقع في محله فهو التفات وتجريد وعلى رأي

---

(١) مريم : ٧٨ .
وينظر البرهان من ٣٢٥ -- ٣٣٠/ ج٣ .
(٢) عروس الافراح : ٤٧٢/١ .
(٣) عروس الافراح : ٤٦٨/١ .

غيره، هو تجريد فقط، وفي قوله (تكلفني) التفات على القولين، ولا نقول إنه أعاد الضمير على غير الأول فيلزم ان يكون الضميران وهما الكاف والياء لشيئين بل أعاده على الأول مدعياً إنه غير الثاني، ... فذلك الذي جرده في قوله (بك) هو في نفس الأمر نفسه فالتفت له بهذا الاعتبار، وبهذا علمنا أن الالتفات في (بك) على رأي السكاكي أوضح من الالتفات الذي في (تكلفني) على قولهما، لان في (بك) خروجاً عن ضمير المتكلم الى شيء لا وجود له بالكلية، وفي (تكلفني) خروج عن الحقيقة المجرد عنها، فهو عدول الى الأصل و (بك) عدول الى الفرع. والعدول الى الفرع أبلغ من العدول الى الأصل» (١)

ويعد السبكي قوله تعالى: «حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم» تجريداً والتفاتاً، لأن الضميرين في نفس الأمر لشيء واحد وبالادعاء لشيئين. (٢)

ومن ثم فان المتأمل لايخطئه حرص السبكي على ان يجعل التجريد والالتفات فناً واحداً، لما لحظ فيهما من ظاهرة العدول، وحين وقف عند التجريد في قول الشاعر (طحا بك) عدولاً الى الفرع، ونحن نجعل العدول على اطلاقه التفاتاً.

ويتضح موقفه اكثر في اعتداده قوله تعالى: «حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم» تجريداً والتفاتاً لأن الضميرين هما لشيء واحد، وان بدا أنهما لشيئين مختلفين. ومن أجل ان نرسخ هذا المفهوم في الدرس البلاغي لابد لنا ان ندرس التجريد عند البلاغيين السابقين على السبكي. وما كان تقديمنا للسبكي عليهم إلا لانه صاحب المحاولة في الجمع بين التجريد والالتفات.

ان اولى الاشارات إلى هذا الفن وردت عند ابن جني بعد وقوفه على اشارات ابي علي الفارسي إليه. ومعنى التجريد على ماذكر ابن جني: أن

---

(١) عروس الافراح: ١/٤٧٢-٤٧٤.

(٢) عروس الافراح ١/٤٧٤-٤٧٥.

العرب تعتقد أن في الشيء من نفسه معنى آخر كأنه حقيقته ومحصوله ، وقد يجري ذلك إلى الفاظها لما عقدت عليه معانيها . وذلك نحو قولهم : لئن لقيت زيداً لتلقين منه الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر ، فظاهر هذا أن فيه من نفسه أسداً وبحراً ، وهو عينه الأسد والبحر لا أن هناك شيئاً منفصلاً عنه وممتازاً منه ، ومنه قول الأعشى :

وهل تطيق وداعاً أيها الرجل (١)
وهو الرجل نفسه لاغيره» (٢)

وأوضح من عرفه هو ابن قيم الجوزية حين قال : «وهو على قسمين : الاول: خطاب الغير والمراد به المتكلم وهو أولى باسم التجريد ...

القسم الثاني : خطاب المتكلم لنفسه مخيلاً لها ان معه غيره كما قيل :

اقول للنفس تأساء وتعزيـــــــة
احدى يديّ اصابتني ولم ترد (٣)

وابن قيم متأثر في تقسيمه بابن الاثير الذي وقف كذلك كابن جني على اشارات ابي علي الفارسي ، فابن الاثير قد قسمه إلى تجريد محض وتجريد غير محض .

«فالاول: وهو المحض أن تأتي بكلام هو خطاب لغيرك وأنت تريد به نفسك، وذلك كقول بعض المتأخرين وهو الشاعر المعروف بحيص بيص :

الام يراك المجد في زي شاعر
وقد نحلت شوقاً فروع المنابر

---

(١) وتمام البيت : ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً ايها الرجل
ديوان الاعشى. تح : د. محمد محمد حسين — طبعة القاهرة ١٩٥٠ — ص ٥٥.

(٢) الخصائص — ٢/٤٧٣ — ٤٧٤ .

(٣) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ١٦٧— ١٦٨ .

كتمت بعيب الشعر حلماً وحكمة
ببعضهما ينقاد صعب المفاخر

اما وأبيك الخير انك فارس ال
مقال ومحيي الدارسات الغوابر

وانك اعييت المسامع والنهى
بقولك عما في بطون الدفاتر

وأما القسم الثاني — وهو غير المحض — فانه خطاب لنفسك لا لغيرك، فمما جاء منه قول عمرو بن الاطنابة :

اقولُ لها وقد جشأت وجاشت
مكانك تحمدي او تستريحي » (١)

ان تعريف ابن الاثير للتجريد ، ووقوف البلاغيين من بعده عند تعريفه وتقسيمه — كما رأينا عند ابن قيم الجوزية — هو من الوضوح بحيث يأخذنا العجب أن لم يجعل ابن الاثير التجريد ضرباً من ضروب الالتفات ، في الوقت الذي يؤكد في تعريفه عنصر الانتقال والانصراف ، فحيص بيص ينصرف عن نفسه إلى خطاب غيره ، وعمرو بن الاطنابة ينصرف عن نفسه إلى آخر يتخيله ويتوهمه على سبيل المبالغة والتوكيد .

فالتجريد بما يمتلك من خصائص مجازية قائمة التخيل يجعل الالتفات اكثر حيوية في أداء الدلالات المعنوية وأوفر استيعاباً للمشاعر والخلجات .

وربما كان الاحتجاج في عدم الحاق التجريد بالالتفات بكون الملتفت اليه غير الملتفت عنه في حين يشترط بعضهم أن يكون كلاهما واحداً . كما نصّ على ذلك ابن معصوم المدني في (انوار الربيع) ملخصاً آراء بعض البلاغيين في قوله : «... ان من شروط الالتفات ان يكون المخاطب بالكلام في الحالتين واحداً . كقوله تعالى : اياك نعبد واياك نستعين . فان ماقبل هذا الكلام

(١) المثل السائر : ٢/١٦٤-١٦٧ .

وان لم يخاطب به الله من حيث الظاهر فهو بمنزلة المخاطب به ،لان ذلك يجرى من العبد مع الله لامع غيره ، بخلاف قول جرير .

ثقـــي بـــالله ليـــــس لـــه شريـك
ومـن عنـد الخليفـة بالنـجـاح

اغثـنـي يـافـداك ابـي وأمـي
بسيب منك انك ذو ارتياح

فانه ليس من الالتفات في شيء ، لأن المخاطب بالبيت الاول امرأته ، وبالبيت الثاني هو الخليفة ؛ فهذا أخص من تفسير الجمهور ، لأن البيتين عندهم من الالتفات ، لأنه عبر عن الخليفة اولاً بطريق الغيبة وثانياً بطريق الخطاب» (١) .

ومهما يكن مذهب الجمهور فان الشاعر قد عدل عن اسلوب إلى آخر ، وان لم يكن المقصود بذلك واحداً .

ويعيننا على هذا التجاوز أن نعود إلى اولى النظرات إلى الالتفات عند الأصمعي وقد جاراه في ذلك ابو هلال وقدامة ثم ابن قيم الجوزية في ما اوردوا من امثلة حيث لم يأخذوا بهذا الشرط .

ومن ذلك قول حسان :

ان التـي ناولـتـنـي فـــرددتهـــــا
قتلت — قتلت — فهاتها لم تقتـل

قال الاصمعي «— قتلت — التفات» (٢) .

الا تراه عدل عن الحديث مع الغلام الساقي إلى الحديث عن الخمرة ثم عاد إلى الغلام بالاسلوب الاول نفسه . فهل الساقي والخمرة شيء واحد؟

وفي شاهد قدامة :

---

(١) انوار الربيع في انواع البديع : ٣٧٩/١ .
(٢) الصناعتين — ٣٩٣ .

تبين صلاة الحرب منا ومنهم

اذا ماالتقينا والمسالم بادن (١)

يتحدث عن صلاة الحرب ثم عدل إلى البادن الذي ليس هو من صلاة الحرب تعريضاً به .

ولعل في هذه الامثلة مايحفز إلى عدم اشتراط ان يكون المخاطب — أي المقصود بالكلام — واحداً عند الالتفات اليه ، وبذلك ايضاً يكون التجريد اسلوباً فنياً من اساليب الالتفات وليس نوعاً مستقلاً عنه .

خاتمة البحث :

بعد هذا التطواف اضع بين يدي القارىء ملاحظات دار عليها البحث ان شاء عدها نتائج او ان شاء عدها مقترحات .

١ — ان الالتفات ضرب من ضروب التوسع في الكلام قائم على اساس العدول والانصراف والتنوع في الاساليب وفق بواعث معينة يقتضيها السياق والمقام .

٢ — يكون التجريد لوناً من الوان الالتفات وليس ضرباً مستقلاً لتوافر مواصفات الالتفات فيه واهمها العدول والانصراف .

٣ — لايشترط في اسلوب الالتفات ان يكون الملتفت اليه هو نفس الملتفت عنه ، والتجاوز عن شرط اعتدادهما واحداً يوسع آفاق الوظيفة الفنية لاسلوب الالتفات .

٤ — ان فصل (التجريد والالتفات) مدخل إلى دراسة فنون أخرى كالاعتراض والاستدراك والتتميم والرجوع والعكس والتقسيم لملاحظة ماإذا كان يسعنا ان نضمها إلى حفل الالتفات (٢) ... والحمد لله اولاً وآخراً.

---

(١) نقد الشعر — ٥٣ .

(٢) هذه دعوة حفزني إلى الاهتمام بها الدكتور حفني محمد شرف في كتابه « التصوير البياني» ص ٤٢٧ .

ثبت المصادر المراجع

١ — اساليب بلاغية : د . احمد مطلوب — وكالة المطبوعات — الكويت — ط١ — ١٩٨٠

٢ — اعجاز القرآن — ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني — تح — السيد احمد صقر . دار المعارف بمصر — ط٣ — ١٩٥٤

٣ — انوار الربيع في انواع البديع — السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني . تح : شاكر هادي شكر — مطبعة النعمان — النجف — ط١ — ١٩٦٨

٤ — البديع في نقد الشعر — اسامة بن منقذ — تح — د . احمد احمد بدوي — د . حامد عبد المجيد — سلسلة تراثنا — وزارة الثقافة والارشاد القومي — الجمهورية العربية المتحدة — ١٩٦٠

٥ — بديع القرآن — ابن ابي الاصبع — تح — د . حفني محمد شرف — القاهرة ط١ — ١٩٥٧

٦ — البرهان في علوم القرآن — بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي — تح — محمد ابو الفضل ابراهيم — مطبعة عيسى البابي الحلبي — مصر — ط١ — ١٩٥٧

٧ — البرهان في وجوه البيان — اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب . تح — د . احمد مطلوب — د . خديجة الحديثي — بغداد — ١٩٦٧

٨ — البلاغة تطور وتاريخ — د . شوقي ضيف — دار المعارف — القاهرة ١٩٦٥

٩ — التصوير البياني — د . حفني محمد شرف — دار نهضة مصر — ١٩٧٠

١٠ — الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور — ضياء الدين بن الاثير . تح : د . مصطفى جواد — د . جميل سعيد — مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٦

١١ — الجامع لاحكام القرآن (تفسير القرطبي) — ابو عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي — ط٣ — دار الكاتب العربي للطباعة والنشر — ١٩٦٧

١٢ — جوهر الكنز — نجم الدين احمد بن اسماعيل بن الاثير الحلبي . تح : د . محمد زغلول سلام . منشأة المعارف — الاسكندرية

١٣ — الخصائص — ابو الفتح بن جني — تح : محمد علي النجار — دار الهدى للطباعة والنشر . بيروت — ط٢ — ١٩٥٢

١٤ — الصناعتين : الكتابة والشعر — ابو هلال العسكري — تح : علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل — دار احياء الكتب العربية — ط١ — ١٩٥٢

١٥ — الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز — يحيى بن حمزة العلوي — مطبعة المقتطف بمصر ١٩١٤ — بعناية سيد بن علي المرصفي .

١٦ — عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح — بهاء الدين السبكي . (من شروح التلخيص) مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر — ١٩٣٧

١٧ — الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان — ابن قيم الجوزية — دار الكتب العلمية — بيروت

١٨ — الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل —

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

محمود بن عمر الزمخشري ط٢ – القاهرة – ١٩٥٣
١٩ – لسان العرب – ابن منظور – الدار المصرية للتأليف والترجمة – مصر
٢٠ – المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر – ضياء الدين ابن الاثير – تح: د. احمد الحوفي – د. بدوي طبانة – مطبعة ومكتبة نهضة مصر – ط١ – ١٩٦٠
٢١ – مجاز القرآن – ابو عبيدة معمر بن المثنى – تح: فؤاد سزكين – ط١ – بيروت ١٩٧٠ .
٢٢ – المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها – ابن جنى تح: علي النجدي ناصف وجماعته – المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية القاهرة ١٣٨٦ هـ.
٢٣ – مفتاح العلوم – ابو يعقوب السكاكي – المطبعة الادبية بمصر ١٩٣٧
٢٤ – منهاج البلغاء وسراج الادباء – حازم القرطاجني – تح: محمد الحبيب بن الخوجة – تونس ١٩٦٦
٢٥ – مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح – ابن يعقوب المغربي – (من شروح التلخيص) مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٣٧
٢٦ – نقد الشعر – قدامة بن جعفر – تح : كمال مصطفى – مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد – ١٩٦٣

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی